

## الباب الثالث

فى حكم ملك الأتراك  
مع ختته الزاهد شيخ النساك



[١٩] قال الشيخ أبو المحاسن ؛ حسان صاحب الحسن والمحاسن والإحسان : ثم نهض الحكيم حسيب الأديب الأريب ، ووقف فى مقام حده وقبل موطىء أخيه بشفاه خده .

وقال : لقد بلغنى أيها السلطان أن فى قديم الزمان ، كان فى الترك ملك يسمى خاقان<sup>(١)</sup> ؛ من الملوك العادلين والسلاطين الفاضلين ؛ يرسم العدل معروف ، وبقصر الجور موصوف ؛ كسُرُ الأكاسرة ، وقصر الأقاصرة ، ونحر الجبابرة ، وتغر فم الذعار النبالة الفاغرة<sup>(٢)</sup> ، ملك بلاد الختن والخطا<sup>(٣)</sup> ، واستولى على ممالك المغل والحنأ<sup>(٤)</sup> ، وأطاع أوامره الترك والتتار ، واستسلم لرأيه سكان الدست<sup>(٥)</sup> والقفار ، وكان يأجوج من جملة خدمه ، ومأجوج من بعض عبيده وحشمه ؛ كأنه وارث لذرية يافث<sup>(٦)</sup> ، قوى فى أخذ الملك من ممالك الصين ، وأخذ إلى أطراف الشمال باليمين ، ولم يكن له من البنين والبنات مع كثرة السرارى والزوجات ، سوى بنت واحدة لطلعتها الأقمار شاهدة .

شَمْسٌ وَلَا كَالشَّمْسِ عِنْدَ زَوَالِهَا      بَذَرٌ وَلَا كَالْبَذْرِ فِي نُقْصَانِهِ

بل بهرت الشمس جمالا والبدر كمالا ، وفاقت سلاح الدنيا شمائل وخصالا ، وهى عزيزة فى قلب أبيها ، كريمة على خواصها وذويها ، فصارت ملوك الأطراف يخطبونها ومن أبيها يطلبونها ، فكان أبوها يفوض

---

(١) علم واسم لكل ملك .

(٢) أى فم الأهوال المخيفة ، المفتوح عن آخره .

(٣) بلاد الختن : بلاد الصيد وما حازاه . معجم البلدان (٤١٣٣) .

(٤) المغل والحنأ : بلاد الهند وما حازاها .

(٥) الصحراء .

(٦) من أبناء نوح عليه السلام .

الأمر إليها ويعتمد في تزويجها عليها ، وهى لا ترغب فى طالب ولا تصغى لخطبة خاطب إلى أن عنست ، وخطابها أيسر . وكان أبوها كما ذكر ذا فطنة بالغة ، وهيبة دامغة . فخشى حوادث الزمان واختلى بها فى مكان ، وقال : اعلمى يا معدن اللطائف ؛ إن البنت فى منزل أبيها كالماء الواقف ؛ إن مكث يأسن<sup>(١)</sup> ، وإن لم يستعمل أنتن ، ولا أقول ذلك ملالا ولا عجزا ولا استقلالا ؛ بل لابد للمرأة من زوج يلمها فيسترها ويضمها ، ونعم الختن<sup>(٢)</sup> القبر وأحلى من البنت الصبر ، فإن رأيت الرغبة فى الزواج طلبت لك كفوا من الأزواج ، وكان ذلك أستر لعرضك وأدنى لإقامة سنتك وفرضك ، وأفرغ لخطر أبيك ، وأشرح لخدمك وذويك .

فقلت : أحسن الله الرحمن إلى مولانا الخاقان ، وكفاه كل جانٍ من الإنس والجان إن البنين من جملة النعم والبنات من أعداد النعم ؛ ونعم الدنيا عليها الحساب ونقمها سبب الأجر والثواب ، قال رب الأرباب فيما أنزله من الخطاب فى محكم الكتاب ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف : ٤٦] .

وقد جاء فى بعض التفاسير أن : الباقيات الصالحات هى البنات ، فمولانا الملك يعد وجودى نقمة عليه من معبودى ، وأسأل الصدقات الملوكية، والمراحم الوالدية أن لا يعجل فى أمر تزويجى ، وأن لا يبادر كيفما اتفق إلى تزويجى ؛ فإن التأمل فى ذلك أولى وثاء فى الدنيا وثواب الأخرى ؛ وذلك لأن الكفاءة فى الزواج معتبرة وقد قرر ذلك الفقهاء البررة ، وإن لم يكن الزوج للمرأة كفؤ ، فزواجها به يقع سخرية وهزوا ، ولا يفيد سوى الغرامة والفضيحة والندامة .

---

(١) يفسد .

(٢) الصهر .

فقال الملك : لا أزوجك إلا بكفاء كريم ، يكون لك أدنى خديم وفى الناس أعلى مقام عظيم .

قالت : يا مولانا الملك وذاك الله شر المنهمك ، لا تحمل اعتراضى على الإساءة ؛ وإنما أسأل عن كيفية الكفاءة ، فإن كانت بالملك والمال فإن ذلك فى معرض الزوال ، وإن كانت بإنشأب الأنساب<sup>(١)</sup> ، فإن ذلك خطأ لا صواب ، قال منزل الكتاب العزيز الوهاب ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] .

وقال من لا يجوز عليه كذبة «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»<sup>(٢)</sup> .

وإنما الفقهاء حكموا بالظاهر والله يتولى السرائر ، ونحن فى قيد الانقياد ، ولا يسعنا إلا ما أمر به الشرع وأراد ، وأما أنا فكفى الكريم ، إنما هو الكامل الحليم الفاضل الرحيم .

قال الملك : بارك الله فى رأيك وعقلك أنا لا أزوجك إلا بملك مثلك ، أو ابن ملك مثل أبيك ، يرداك ويكرم خدمك وذويك ، يعدل بالسوية ويحكم على سائر الرعية .

قالت : أيها الملك الكبير صاحب التاج والسرير ، أنا ما أعرف الملك إلا من يعرف بملك الحكم على نفسه فى سيره ، ويكون متحكماً متمكناً من الحكم على غيره ، فيحقق أن يقال فى ملكه ذى الجلال ، خلد الله سلطانه وشيد أركان ملكه وبنياته .

قال الملك : ومن هو ذاك بارك الله فيك وهداك .

---

(١) تأصيل النسب .

(٢) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه : المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٥) والإمام أحمد فى مسنده (٢٥٢/٢) .

قالت : أما الحاكم على نفسه : فهو المالك لزاماً جوارحه وحسه ، قد جعل خزائن القلب والسمع معدناً لجواهر العقل والشرع ، فمهما اقتضاه العقل مضاه وعمل بمقتضاه ، وما ارتضاه الشرع وقضاه كان فيه انقياده ورضاه ، قد تحلى بعقود مكارم الأخلاق ، ولو كان فى أسمال<sup>(١)</sup> أخلاق ، وشغل نفسه بتهذيبها ، واجتهد فى خلاصها من شرك عيوبها ، واهتم بعيوبه عن بعيده وقرابه وبغيضه وحبيبه ، فذلك الحاكم على نفسه المميز على أبناء جنسه .

وأما حكمه على غيره : فهو أن يكون فى سلوكه وسيره منعزلاً عن الناس فى زوايا لباس ، لا يسأل عن أحوالهم وعيوبهم ، ولا ينظر إلى ما تحت أيديهم وجيوبهم ، مالكا لزام العزلة ، متنعماً بهذه النعمة الجزلة ، قد اتخذ التقوى والقناعة أحسن حرفة وأربح بضاعة ، قد سلم الناس من يده ولسانه<sup>(٢)</sup> لا يدرى بشأنهم ، ولا يدرون بشأنه ؛ فذلك الحاكم على غيره الفائز من ملك الدارين بخيره . فهو الذى خلد ملكه وسلطانه واتضح للعالمين برهانه.

فإن وجد بهذه الصفات موافى فإنه لى كفاء مكافى ، وإنه كالبدن جلى نقى الصدر لله ولى ، فإذا أنعم الزمان بمثل هذا منالاً ، فنعم نعم وإلا فلا .

لا فجعل ملك الختن يتطلب مثل هذا الختن ، وأرسل القصاد إلى أطراف البلاد يسألون سكان الأكناف ، وقطان الأطراف عن موصوف بهذه الأوصاف ، واستمروا على ذلك مدة كل باذل جهده ، حتى أرشدوا بعد زمان أن المكان الفلانى فيه فلان ؛ رجل أعرض عن العَرَض ؛ فلم يكن له فى

(١) القليل من كل شيء .

(٢) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)) . وهو حديث أخرجه الترمذى : كتاب الإيمان ، باب ما جاء فى أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (٢٦٢٧) وقال الترمذى : حسن صحيح .

الدنيا غرض ، وهو بحسن الصفات موصوف ، وفى كرخ العبادة<sup>(١)</sup> والاجتهاد معروف ، جامع لهذه الصفات ، ليس له إلى الدنيا وأهلها إلتفات ، مشغول باكتساب الآخرة وطلب نعمتها الفاخرة ، وهو من نسل الملوك وقد ترك وراءهم السلوك ، وسلك فى العلم والعمل السبيل الأقوم حتى كأنه محمد ابن الحسن<sup>(٢)</sup> ، أو إبراهيم بن أدهم<sup>(٣)</sup> ، ولشدة ما هو لنفسه مجاهد سماه الناس الملك الزاهد ، فاجمع الخاقان على مصاهرته وجعل التقرب إليه قرينة لآخرته ، فأخبر ابنته به وكان جل مطلوبها ومطلوبه ، وعقد بينهم النكاح وحصل الفلاح والصلاح ، فوافق شن<sup>(٤)</sup> طبقة وصار لعين مرامها كالحدقة ، ومضى على ذلك برهة وهما فى طيب عيش ونزهة .

فاشتاق الخاقان فى بعض الأزمان إلى رؤية ابنته وسرور مهجته ، فقام لدارها بقصد مزارها لينظر حالها وما عليها ومالها ، فوجدها فى عيش هنى وأمر سنى<sup>(٥)</sup> ، فسألها عن أحوال زوجها الزاهد ، وكيف صبرها على حالها الجاهد ، فأتت خيرا ، وكفت ضرا وضيرا ، وقالت : جميع ما يبرزه ويأتيه على حسب ما أريده وأرتضيه ، وارتفاعات أحوالنا بسعادة مولانا فى دفاتر الأمن منضبطة ، وعقود حياتنا يمين صدقاته فى نحور الرفاهية غير منفردة ؛ غير أن بيتنا واحد وبسبب ذلك يتضرر هذا العابد فيه نبيت وفيه نقيط ، وبجوانبه مالنا من خفيف وتقليل وقوت ونقود وخادم ومولود ، فلا

---

(١) مكان العبادة .

(٢) محمد بن الحسن الشيبانى ، الفقيه الإمام ، قاض المسلمين ، أحد الأعلام ، صاحب أبى حنيفة النعمان . البداية والنهاية (١١٠/١٠) .

(٣) إبراهيم بن أدهم ، من كبار الزهاد ، ومن تلاميذ الحسن البصرى ، قضى عمره فى السياحة والزهد توفى سنة (١٦١) هـ . سير أعلام النبلاء (١١٥٦) .

(٤) أى تألفا وامتزجا .

(٥) رضى ورفعة .

يتفرغ من الغوغاء<sup>(١)</sup> للعبادة لأنها تستدعى عزلة العابد وانفراده ، وتخليه  
لمناجاة معبوده ليظفر من حلاوة الطاعة بمقصوده ، فأسأل مولانا الخاقان ذا  
الفضل والإحسان بيتاً يتخلى فيه للعبادة ومكاناً يضع فيه خرثى<sup>(٢)</sup> البيت  
وعتاده ، فقال : حبا وكرامة وقربا وسلامة .

ثم اجتمع الملك بصهره الذى به فاخر وذكر له أنه أعطاه بيتاً آخر ،  
أحدهما : يكون لخلوته ومببته ، والآخر : يضع ما يحتاجه من عتاده وقوته .

فقال الزاهد : أيها الملك الماجد ، فعلت ذلك لتقسيم خاطرى ، وتوزع  
فكرى ومرائى<sup>(٣)</sup> ، ولا طاقة لى أن أتعلق بمكانين ، وما جعل الله لرجل  
من قلوبين ، وإنما الزاهد من همه فى الدنيا واحد ، فإنه على عدد التعلقات  
يتوزع القلب الشتات ، وإذا تعددت الأماكن يحتاج كل منها إلى ساكن أو  
حافظ أو ضابط أو حارس أو رابط ، وأنا لا اعتمد لى بحفظ نفسى أيها  
الولى ، فكيف يكون لى اقتدار على حفظ الأغيار وإذا انقسمت أفكارى وفسد  
بالى ، فكيف أقدر على صلاح حالى ، وأنى يصلح مع فسادى أمور معاشى  
ومعادى ، ثم إنى إذا وزعت نفسى فقد نبهت راقد حرصى ، والحرص أفعى  
قاتل وأسد صائل يقتلنى بسهمه بل بمجرد شمه .

فقال الملك الكبير : لا تهتم لذلك أيها الزاهد الخطير ؛ فإن لى أماكن  
عديدة وقصور مشيدة وحواصل مصونة ، وخزائن مكنونة ، الكل تحت  
تصرفك واختيارك لا منازع لك فيه ولا مشارك ، فاجعل لكل جنس من  
قماشك وأثاثك ورياشك ، وما يقوم بأودك ومعاشك مكاناً على حدة وناحية  
حفظ منفردة ، واتخذ لنفسك مقاماً خاصاً بك لا عاماً ، وأنا أقيم على كل مكان  
حارساً ، إن شئت راجلاً وإن شئت فارساً ، فعند احتياجك إلى شىء أتاك هنا  
ميسراً من غير كد ولا عى ، وتفرغ أنت لعبادتك واشتغالك بأمور آخرتك .

---

(١) العامة من الناس .

(٢) أى قليل المتاع .

(٣) العزائم .

قال الزاهد : أيها الملك المجاهد الاغترار بالقصور من جملة القصور ، والاعتماد على الحصون من دواعي الجنون ، وإذا ورد من الملك الغفور طلب على يد القبور فماذا تجدى الدور والقصور ، وماذا تنفع الحصون أو يدفع كل مكان مصون ، وإذا آذن بالجلول ذلك الخطب المهول تود النفس لو كانت القصور الممهدة والبروج المشيدة ، أذل من أفحوص قطاة<sup>(١)</sup> ، وأقل من عطش بزاة<sup>(٢)</sup> وقد قيل :

قَمِصٌ مِنَ الْقُطْنِ أَوْ حُلَّةٌ      وَشُرْبَةُ مَاءٍ قُرَاحٍ وَقَسْوَةٌ  
يُنَالُ بِهَا الْمَرْءُ مَا يُرْتَجَى      وَهَذَا كَثِيرٌ عَلَى مَنْ يَمْسُوتُ

واعلم أيها الخاقان ؛ إن النفس لها خادمان مطيعان مجيبان ، ولما تأمر به سميعان ، وهما الشهوة والحرص الشديد الدعوة . أما الشهوة : فرائد الأكل الكثير والشرب . وأما الحرص فعائد الرعونة والعجب وقد قيل :

فَهَذَا يَقُودُ إِلَى طَبْعِهِ      وَهَذَا يَسُوقُ إِلَى رَبْعِهِ

فهما ليلا ونهارا وسرا وجهارا ، يزينان لها ما طيعا عليه ، ويجذبانها إلى ما جبلا إليه ، ويقاضيانها حقهما ويطالبانها مستحقهما ، ولا بد للمخدوم من إقامة أودّ خادمة واسترضاء أنيسه ومنادمه ، وقد قال من أتقن المقال :

إِنَّ اللَّيْلَبَ أَخَا اللَّيْلِبِ هُوَ الَّذِي      مَعَ تَيْهِهِ يَحْنُو عَلَى عَشَاقِهِ  
وَكَذَا الرَّئِيسِ وَأَنْتَ أَكْبَرُ جَنْسِهِ      مَنْ قَاضٍ فِي الْخُدَامِ مِنْ أَرْزَاقِهِ  
يَهْتَمُّ إِنْ حَضَرُوا لَهُ يَنْوَالَهُ      يَغْتَمُّ إِنْ غَابُوا عَلَى أَشْوَاقِهِ  
مَعَ أَنْ حِشْمَتَهُ وَفَائِضُ عِلْمِهِ      تَرَقَّى بِكُلِّ مُنْتَهَى اسْتِحْقَاقِهِ

(١) القطاة : الأنثى من الطيور . والأفحوص : المكان الذي تحفره القطاة ، لتحفظ فيه البيض .

(٢) بزاه ، مفردا باز : أحد الطيور الجارحة .

ولكن رضا هذين الخادمين غاية لا تدرك ، وفقد مقصوديهما نهاية عميقة المسلك ، وقد قال سيد الأنام عليه الصلاة والسلام يوما وهو بين الأصحاب كالشمس ليس دونها حجاب ، والبدر لا يحجبه سحاب : «لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»<sup>(١)</sup> .

والحرص مُهْلِك ، والشهوة قاتلة ، وكل منهما فى الدمار والبوار علة كاملة ، وناهيك يا ذخر الحق وغيائه أخبار اللصوص الثلاثة ، فطلب الملك من الزاهد إيضاح هذا الشاهد .

[٢٠] فقال : ذكر أهل الورثة ، أن لصوصا ثلاثة ، كانوا على سبيل الاشتراك متعاطين أسباب التحرم والهلاك ، واستمروا على ذلك مدة حتى استولوا من الأموال على عدة ، ففى بعض الليال ظفروا بجملة من الأموال ، ودخلوا إلى مكان دائر<sup>(٢)</sup> خال بنية الاقتسام وكانوا محتاجين إلى الطعام ، فوجدوا فى ذلك المكان الدائر صندوقا مملوا من الجواهر ، ففرحوا وانشرحوا ، وتصوروا أولئك الخاسرين أنهم ربحوا . فقالوا : إن اشتغلنا بقسمة هذا المجموع كُليتنا وأهلكنا كلب الجوع ، فأولى طلب الطعام قبل الاقتسام ولو بأدنى التهام ويسير التقام . ثم أرسلوا مع أحدهم إلى المدينة ورقهم<sup>(٣)</sup> ، ليأتيهم بما يسد رمقهم .

فلما انفصل عن مكانهما وغاب عن أعينهما تحركت نفسه الخبيثة بشهوة أجببت تاريخه<sup>(٤)</sup> ، وقواها الحرص المشوم لشدة الشره الملوم ، ودعاه داعى الفساد إلى الاستيلاء بالانفراد ، فعزم على ختلها فوضع فى الطعام

---

(١) حديث أخرجه البخارى : كتاب الرقاق ، باب ما يتقى من فتنة المال (٣٦ ، ٦٤) .

(٢) مهجور ، خرب .

(٣) الورق : الفضة . والمعنى : النقود .

(٤) التريث والهدوء .

سما لقتلهما ، وأما هما فعلى قتله عزمًا واستعدا لذلك بعد ما جزما ، ليصير المال بينهما نصفين ، ويصيرا فى ذلك كالأخوين الإلفين ، ويكون ذلك كأنه وراثة لأن شر الرفقاء ثلاثة ، ولم يدعهما إلى ذلك غير داعى الشهوة وأكد ذلك داعى الحرص ، وأبخس بها من دعوه .

فلما فصل ذلك بالأكل بادرا إليه بالقتل ، ثم بعد ما قتلاه عمدا إلى الطعام فأكلاه فبردا<sup>(١)</sup> فى الحال وتركوا ذلك المال ولحقا بصاحبهما التالف ، وسيئا تلبد<sup>(٢)</sup> المال والطارف .

وإما أوردت هذه الموعظة ؛ لأنها على أحوال الدهر موقظة ، وإن كان مولانا الخاقان فى أموره يفظان ، لكن قد قال رب العالمين ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] . واعلم يا مولانا الخاقان ، كفاك الله مكاييد الشيطان وأنجح مقاصدك على مر الزمان ، أن الدرجة العلية والمرتبة السنية لا تتأل بقوة ولا عزيمة ولا شجاعة ولا همة ، وإنما هى عناية ربانية وأسرار رحمانية لأقوام سبقت لهم من الله الحسنى وزيادة ، وانتظموا فى سلك أهل السعادة ، فهم أهل الفضل والسيادة ، أسبغ الله عليهم سواطع الأنوار وقطعهم عن قواطع الأشرار ، فهم السادة الأخيار والقادة الأبرار ، قاموا بأداء ما وجب عليهم وتركوا ما خلفهم واستبشروا بما لديهم ، فأنوارهم ساطعة وأسرارهم لجميع الأوهام قاطعة ، تركوا زخارف هذه الدار وأرادوا دار القرار ، وجوار الملك الغفار ، فهم الهداة إلى الله الدالون على الله ، لا يعترهم كدر الأوهام ولا يشتغلون عن خدمة خالقهم مدى الأيام ، هم العباد المكرمون ، العباد المقربون ، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين فى كتابه المكنون ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس : ٦٢، ٦٣] .

(١) أى مات .

(٢) تلبد المال : عزيزة وكثيرة .

واعلم أن أعدى عدوك بين جنبيك ؛ وهى نفسك التى قط ما رَكَنتُ  
إليك، فاعص هواها ولا تعطها مناها ، فإن فى اتباعها الندم عاجلا والحسرة  
أجلا ، لا بقليل تنفع ولا بكثير تشبع ، ولا تظن أنها إذا أعطيت مناها شكرت ،  
أو إذا ذَكَرْتَهَا مَنْ بَرَّأها ذكرت ، بل متى أمنتها كفرت ، أو أنستها نفرت ، أو  
أرخيت عنانها بطرت وأُشرت<sup>(١)</sup> ، وإن نالت مطلبها أو تناولت ماربها انتقلت  
عنه وطلبت أعلى منه ، فليس لها دواء إلا القمع عن دواعى الهوى كما قيل :

النفسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وكما قيل أيضا :

وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى فَإِنْ أَهْمَلْتَ تَأَقَّتْ وَإِلَّا تَسَلَّتْ

وكما قيل أيضا :

قَنَعَ النَّفْسُ بِالْقَلِيلِ وَإِلَّا طَلَبَتْ مِنْكَ فَوْقَ مَا يَرْضَاهَا

وياك وطول الأمل فإنه مفسدة للعلم والعمل .

قال الحكماء وعقلاء العلماء : الأمل شبكة الشيطان ، وموجب  
الحرمان ، فاجهد مادام لك على النفس ملكة أن تخلص نفسك من هذه الشبكة ،  
ولا تهتم للأقوات فكل ما قُسِّمَ ما فيه فوات وكل ما هو آت آت ، وكل  
مارقمه<sup>(٢)</sup> القلم فى القدم وأثبته قضاء الله تعالى عليك وأنت فى العدم ، سواء  
كان خيرا أم شرا نفعا أم ضرا ؛ فأنت ملاقيه وعلى كل حال موافيه ، فاقطع  
دواعى الطمع عن لا يضر ولا ينفع لا عمن إن شاء ضر وإن شاء نفع ،  
ولا تجتمع إلا بمثلك فى الجماعات والجموع ، ولا تتعب لجوع وعرى واكتساء

---

(١) بطر ومرح .

(٢) كتبه .

وشبع ، فقد قيل : إذا شبعْتَ فلا تهتم للجوع فكم من شعبان مات قبل أن يجوع ، وإذا اكتسيت فلا تهتم للعريّة ؛ فكم من مُكْتَسٍ مات وثيابه جديدة مطوية .

واعلم أن طبع الدنيا بالمخالفة كأنها على المخالفة مخالفة ، فإذا ضمنت عنها يدك إليك أقبلت عليك وجاءت تهوى تحت قدميك ، وإذا طلبتها هربت ، منك وكلما ارتبطت إليها انحلت عنك وقد قيل أيها الملك الجليل :

مثل الرزق الذى تطلبه ، مثل الظل الذى يمشى معك أنت لا تتركه مستعجلا ، وإذا وليت عنه تبعك .

ثم اعلم أيها الخاقان : إنك وإن كنت ذا التصرف والسلطان ، وأن هذه الخلائق رعيّتك نافذة فيها بمراسيمها مُنيّتك ، إلا أنك فى الحقيقة واحد منهم لا تزيد بشيء فى الذات والصفات عنهم ، ولكن الله القديم العالم الحكيم سلطان السلاطين بل خلق الأولين والآخرين رفعك عليهم ، وتقدّم بأمره أن يطيعوك إليهم فقال من له الخلق والأمر ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلى الْأَمْرِ﴾ [النساء: ٥٩].

فهم قد أذعنوا لك وأطاعوك فراعهم كما هم راعوك ، واطلب لهم أسنى المراعى وأبهاها ، وأوردتهم أعذب المشارب وأصفاها فإن الملك الذى سلمهم إليك ، سوف يتقدم بالسؤال عنهم إليك ، وقد قال من أنت خليفة على أمته «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيّته»<sup>(١)</sup> . فكن لهم كما تريد أن يكونوا لك ، ودين لهم كما تحب أن يدينوا لك .

واعلم أيها الملك الودود : أن هذه النقود إن لم تصرف فى مصارفها ،

---

(١) حديث : أخرجه البخارى : كتاب النكاح ، باب «قوا أنفسكم وأهليكم نارا» (٥١٨٨).

وترفل<sup>(١)</sup> فى وجوه الطاعة فى مطارفها<sup>(٢)</sup> فإنها جمر يضرهم فى نار جهنم كما قال من يقول للشىء كن فيكون ﴿يَوْمَ يُخْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥] .

فاسمع أيها الملك الصالح نصيحة مشفق ناصح ، ولا تغتر بالدنيا وزهرتها ولا تنظر إلى حلاوتها وخضرتها ، وإياك والميل إلى نزهتها ونضرتها ، فإنك إن ملت إليها أسرتك أو جُبرت على الركون إليها كسرتك ، وحسبك من كلام الرب الغفور ومن بيده مقاليد الأمور ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] .

قال الراوى لهذه الحكم والفتاوى : فلما وعى ما قال الختن هذه النصائح الصادقة من الختن أمر بها فسطرت ، ثم نشرت وشهرت وعلى المنابر قرئت وعلى رؤس الأشهاد ذكرت ، وأبلغها ابنته وقرر لها مقدار زوجها وحكمته وميله عن الدنيا ورغبته .

فقالت : هذا الذى كنت أردته وعلى مسامع مولانا الخاقان سرردته . ثم إنها أقبلت على طاعة ربها وبعلمها ، وإصلاح أحوالها فى قولها وفعلها ، وقضيا عمرهما فى أنواع العبادة ، واكتسبا بطاعتها فى الدارين الحسنى وزيادة ، ثم اقتدى بهما الملك وعسكره ؛ حتى انتشر فى آفاق المملكة بالعدل والصلاح خبره ، إلى أن اندرج إلى رحمة الله تعالى ذلك الرعيل<sup>(٣)</sup> وبقي ذكره مخلدا على صفحات الأيام جيلا بعد جيل ، وقد قيل فى ذلك ممن أحسن القيل :

|                                                 |                                                      |
|-------------------------------------------------|------------------------------------------------------|
| كَانُوا شُمُوساً تُضِيءُ الدَّهْرَ طَلَعَتْهُمْ | وَبِى طَرِيقَ الْمَعَالِى يُقْتَدَى بِهِمْ           |
| غَابَتْ فَلَوْلَا سَنَاهُمْ كَالْبَذْرِ أَضَا   | مِنْ بَعْدِهِمْ تَاهَ أَهْلُ الْفَضْلِ فِى الظُّلَمِ |

(١) تنفق .

(٢) أى فى أماكنها وحدودها .

(٣) الجيل من الناس .

هكذا يكون طالب السعادة الأبدية والكرامة السرمدية<sup>(١)</sup> ، إذا ملكه الله  
زمام الرعية يحسن سيره في الدنيا ويتيقظ لتحقيق السعادة الكبرى ويستغل  
بما يرضى عنه المولى ، وحسنها الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله  
العلى العظيم .

تمت بحمد الله تعالى نواذر ملوك العرب والعجم والأتراك ، ويلي ذلك  
مباحث زاهد الإنس العالم مع شيطان الجن الآثم الأفاك . ونسأل الله المسئول  
أن يحقق لنا من كرمه وإحسانه المأمول ، ويعصمنا بفضل من عثرات  
الفضول ، والصلاة والسلام على أعظم نبي وأكرم رسول وعلى آله  
وأصحابه ، وأكرم بالصديق<sup>(٢)</sup> ، والفاروق<sup>(٣)</sup> ، وذى النورين<sup>(٤)</sup> ، وزوج  
البتول<sup>(٥)</sup> ، وإخوانه من الأنبياء والمرسلين ، صلاة وسلاما يشتملان العفو عنا  
والقبول ويؤمن بالكرم والفضل على قطوعنا بالوصول آمين .

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) المستمر الأبدى .

(٢) هو لقب أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، لقبه النبي ﷺ عند تصديق إياه لخبر الإسراء  
والمعراج . الإصابة (٩٦٣٦) .

(٣) هو لقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقب به لتفريقه بين الحق والباطل . الإصابة (٥٧٥٢)

(٤) هو لقب عثمان بن عفان رضي الله عنه لقب به لزوجاه من ابنتي النبي ﷺ . الإصابة (٥٤٦٤)

(٥) البتول هي فاطمة بنت النبي ﷺ وزوجها هو علي بن أبي طالب . الإصابة  
(١١٥٨٧) .